مجرهو لو الأبطال

ابنا النقيب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أرأيت التاريخ اتسع يوماً لذكر الألوف المؤلفة ممن سيروا حوادث الدهر، ودفعوا تيارات الزمان نحو مستقرها؟ قد يذكر التاريخ عظيما أو بعض عظماء، وهؤلاء قد يكونون من قادة الحرب وزعماء أرباب السيف، وقد يكونون من أهل السياسة وأصحاب الدهاء والكياسة، الذين تألفوا الناس وحركوا الأحزاب، وقد يكونون من أهل القلم، لا بل قد يكونون من أصحاب العلم الذين أضاءوا للناس سبلهم فى الحياة. ولكن كم يكون هؤلاء الذين يذكرهم التاريخ؟ أيكونون بضع مئات فى كل عصر؟ أم لعلهم يبلغون بضعة ألوف؟ وأين يقع هؤلاء من ذلك التيار الآتى الذى تزدحم به الأيام والليالى من الناس؟

قد يزعم زاعم أن الأفذاذ كانوا أبداً قليلى العدد، وأن التاريخ لا يذكر إلا هؤلاء الأفذاذ. وذلك زعم أكل الحكم فيه لكل من وقعت عينه على هذه الكلمات، فانى لا إخال فيهم الكثيرين ممن بلغت بهم الأنانية الى التطلع لذكر التاريخ والخلود فى صحائفه. فاذا كان أكثرنا لا يطمع فى ذكر التاريخ والخلود فيه، أيكون ذلك مُخَذلاً لنا عن القيام بما يجب علينا؟ إن من الناس من يعطى المسكين أمام أعين الناس. حتى يشتهر بينهم بالأفضال والاحسان، وإن منهم من يرفع رأسه بكلمة الحق، وهو على مسمع من قوم يطمع أن يقولوا عنه إنه حر أبى كريم النفس، وإن منهم من تدفعه الحمية وهو على مرأى من الناس الى أن يخوض الأخطار فى سبيل المكارم، لتكون له بذلك ذكرى بينهم وحسن أحدوثة. وهذا والحق لا بأس على الناس أن يأتوه، فان الخير لا يضره أن يكون من ورائه منفعة لمن يقدمه. غير أن تلك المرتبة فى المحل الثانى من المكارم، وأما المحل الأول فقد سبق اليه من يواسى فى الخفاء، وهو لا يطمع فى شكر من يواسيه، ولا يتطلع الى إعجاب من حوله من الناس، ومن يصدع بالحق لا يبتغى من وراء ذلك إلا أن يقوم بواجبه أمام نفسه، ومن يصنع الخير للناس لا ليجازوه بالاجلال، ولا ليفوز منهم بالاعجاب. بل لأنه يطيع طبيعته فى ذلك وينطلق على سجيته. ومن ثم كان الأولى بشكر الانسانية من يقوم على المكرمات، ويمضى فى الخير، وهو فى غمار الناس لا يستشرفه أحد من الناس، ولا يشرئب هو بعنقه اليهم. فاذا نحن رضينا بذلك كان انتدابنا الى أداء الواجب من تلقاء أنفسنا غاية ما يحرص عليه أماثلنا، ولم يكن إعجاب الناس ولا ثناؤهم بما يطمع فيه الكرام أو تطمح اليه النفوس العالية.

***

ولقد كان فى مصر فى مختلف العصور جماعات كثيرة، بلغت من سمو النفس أنها أدت واجبها، ولم تعبأ بأن يتخلف عنها فى التاريخ ذكر. ومضى التاريخ يذكر باته وأسمائه، فلم يذكر من هؤلاء إلا النزر اليسير. ونحن اليوم موردون ذكر اثنين من هؤلاء أبى الله الا أن يحفظ لنا اسميهما لتكون تلك آية دالة على أن فيمن مضى جماعات لا عد لأفرادها أدوا واجبهم، ومضوا فى ثنايا ضباب الماضى، ولم يعبأوا بأن يلتفتوا التفاتة واحدة الى الناس يطلبون منهم شكراً ولا ثناء. وتلك هى مكارم الأخلاق ومروءة الحياة.

كان فى مصر جماعة الأمراء المصريين الذين يظلمهم التاريخ بأن يطلق عليهم اسم «المماليك»، وكانوا يسمون أنفسهم الأمراء المصريين. ومهما يكن من محامدهم أو مساوئهم، فقد كانوا معتزين فى كل الأحوال بمصريتهم يحبون هذه البلاد كأعظم ما يحب الرجل بلاده.

وكان من هؤلاء الأمراء من استقل بمصر استقلالاً تاماً وأحاط ذلك الاستقلال بسياج من قوة قلبه وحماسة نفسه. ثم عدت على ذلك الاستقلال العوادى فآثر أن يبذل دمه قبل أن يبصر صرحه ينهار، وقضى قتيلاً فى دفاعه كما يموت الأسد وهو يدفع عن عرينه. وكان أحد هؤلاء أمير مصر الأشهر على بك بلوط قبن المعروف بعلى الكبير. وقد كان فى أيام هذا الأمير كثيرون من الأفاضل الأمجاد، منهم أخوان من نسل هاشمى حسينى: أحدهما اسمه السيد على بن موسى الحسينى الأزهرى المصرى، والآخر اسمه بدر الدين الحسينى المصرى. ويعرف كل منهما بابن النقيب، لأنهما من سلالة بيت كان منه نقباء فى بيت

المقدس . وكانا عالمين ، نالا من العلم أقصى ما ينال من زمانهما . وبلغا من ذلك مرتبة التدريس ، فكان أكبرهما (على) يدرس فى المشهد الحسينى التفسير والفقه والحديث ، وتبعه أخوه الأصغر بعد موته فى إملاء الحديث فى المشهد الحسينى نفسه . وكانا مع ذلك كاتبين مبرزين ، فكان السيد على يتبع فى النثر طريقة طريفة « لايتكلف السجع ، وإذا سئل عن مسئلة كتب عليها الجواب أحسن من الروض جاده الغمام »

غير أن هذين الأخوين لم تقنع نفساهما بما بلغتا من مرتبة العلم ، إذ رأيا أن دونهما واجبا عاما يجب عليهما أن يضطلعا به ، وذلك أنهما رأيا الحياة العامة محتاجة إلى كثير من التقويم والتهذيب ، فكان الأخ الأكبر يخرج فى دروسه عن التلقين المجرد « إلى الرد العنيف على أرباب الأموال والأكابر وملوك الزمان » حتى انه اضطر للهجرة فى سبيل الحق من مصر إلى بلاد السلطنة العثمانية ، ثم اضطر مرة أخرى إلى أن يهاجر إلى مصر هارباً من حكومة السلطان لأنه لم يرضها ولم ترضه .

وكان الأمراء يعرفون له إخلاصه ، ويقدرون له صراحته فى الحق ، فان الأمير محمد بك أبا الذهب الذى آل اليه الأمر بعد على بك الكبير سأله مرة على سبيل المباسطة فقال له : « كيف رأيت أهل اسلامبول ؟ » فقال له : « لم يبق باسلامبول ولا بمصر خير » فلم يغضب الأمير من شدة رده ، بل قضى ديونه وأعانه بما يتصدق به على الفقراء .

وكان السيد على فارساً شهما « لايخلو (اصطبله) من الخيل ، ويضمرها ويعتنى بأحوالها ، ويرغب فى شرائها لمعرفته بالفروسية فى رمى السهام واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك » فكان مقصد اللاجئين من الناس ، وموئل المظلومين من العامة ، ومكان الاجلال من أهل الحكم ، يقضون ما يأتى فيه شافعا ، ويخشون نقده ، ويكرمون نصحه . ثم مات السيد على وتبعه أخوه الأصغر السيد بدر الدين . فسار على منهاج أخيه من « التردد الى الأعيان والأمراء ، والسعى فى حوائج الناس ، والتصدى لأهل جهته وخطته فى دعاويهم ، وفصل خصوماتهم وصلحهم ، والذب عنهم ، ومدافعة المعتدى عليهم ، ولو من الأمراء والحكام » ، وصارت له مكانة كبرى فى البلاد وعند الأمراء « يخشون جانبه وصولته » ثم ذهبت أيام هؤلاء الأمراء المصريين وهبطت على مصر كارثة الأجنبى ، إذ دخل الفرنسيون مصر ، فدمروا وهدموا وغيروا ، وأبوا إلا أن تكون مصر على مثل خطتهم ومدنيتهم . فغضب كرام المصريين لذلك ، ورأوا فى تلك المحاولة قضاء على شخصيتهم وازدراء لمدنيتهم الموروثة التليدة . فانتهزوا الفرصة وثاروا على الفرنسيين ، وكان السيد بدر الدين من زعماء الثوار . « فجمع جموعه من أهل الحسينية والجهات البرانية ، وانتبذ لمحاربة الفرنج ومقاتلتهم وبذل جهده فى ذلك » غير أن الثورة لم تنجح كما هو معروف ، فخرج السيد بدر الدين من مصر منذ رآها غير صالحة لمقامه فيها . وأى مقام للحر الكريم المجاهد فى بلاد الضيم وبلاد الله واسعة يستطيع أن يهاجر فيها ؟ واتبعه غضب الفرنسيين فى داخل البلاد وفى خارجها ، وانتقموا منه بهدم ما ترك فى مصر من أبنية ، وسلب ما خلف فيها من أموال ، غير أنه لم يبال بشىء من ذلك ، ولم يكن مثل بدر الدين ليعبأ بما يصيبه فى المال من خسارة ، ومازال فى خارج مصر يجاهد مع المجاهدين حتى عاد منصوراً فيمن عاد بعد خروج الفرنسيين من مصر ، ولم يبطره النصر كما أنه لم يضعف فى أيام المحنة من الخيبة والخذلان ، ولما عاد إلى مصر استأنف السعى فى خير المجموع وهو قرير العين بما نال من توفيق ، وكان مما يزيد قلبه اطمئناناً وسلاماً أن يذكر ما أصابه من الألم فى جهاده .

ولم يكن ابنا النقيب سوى درتين من عقد أبطال سمى التاريخ بعضهم ونسى البعض ، ورحم الله من سمى ومن لم يسم .

لقد طوى الماضى فى بطون الثرى ألوف الألوف من الأجداد ، وقد يكون منا من يتهم هؤلاء الجدود ببعض التهم ، وجدير بنا أن نفكر مرتين قبل أن نجرؤ على ذلك الاتهام .

لقد كان فى الماضين من هم أقوى منا مروءة فى حياتهم وجهادهم وسعيهم الى الخير ، منذ كانوا يؤدون أمانتهم غير طامعين فى أن يعرف الاحفاد عنهم ما صنعوا . وحرى بنا أن نتسامى الى مثل هذا الكرم فنسعى الى أداء الأمانة ، ونحن فى ستر الخفاء لا يطلع علينا إلا الله ، ولا ترقبنا بعد الله سوى عين الضمير ؟

محمد فريد أبو حديد

ملاحظة : كل ما نقلناه هنا من المقتبسات منقول عن تاريخ الجبرتى .